البازيليك

كلمة «بازيليكا أو باسيليكا» هي كلمة لاتينية "Basilica" مشتقة من اليونانية "Βασιλικά"، اسم نسبة إلى الملك Βασιλιός أو الملكية، ومنها "Βασιλική στοά" بمعنى الرواق الملكي أو القاعة الملكية؛ ومن ثم فإن بازيليكا في العمارة اليونانية تشير إلى النسبة أو التبعية للملك أكثر من الشكل أو الوظيفة. وأخذها الرومان عن اليونانيين – كدلالة على قوة تأثير الحضارة اليونانية – واتسعت دلالة مصطلح البازيليكا في العمارة الرومانية؛ بحيث لم تعد تقتصر على النسبة الملكية (قاعة الملك اليونانية). وارتبطت البازيليكا بالعمارة المدنية الرومانية بصفة عامة؛ فهي تصف شكلاً معماريًا انتشر في العمارة المدنية الرومانية باستخدامات متعددة. فنجد المحكمة أو دار القضاء بالساحة الرومانية "Forum"، والسوق (كمقر كبار التجار ومركز للمعاملات التجارية) بالساحة الرومانية "Forum"، وقاعة الاستقبال الرئيسية بالقصور الرومانية، وردهة للمجالس، وأيضًا قاعة الحمام الرئيسية أخذت نفس تخطيط البازيليكا. وهكذا انتشرت البازيليكا كشكل معماري في كافة المدن الرومانية، وأصبحت جزءًا رئيسيًا يلحق بالسوق الرومانية "Αγορά" في (أو بالقرب من) الساحة الرئيسية للمدينة الرومانية.

ورغم تعدد الاستخدامات الوظيفية للبازيليكا كشكل معماري؛ فيمكن تعريفها في العموم بأنها كانت في العمارة الرومانية تمثل صالة تجمع أو اجتماع جمهور كبير لغرض غير التعبد؛ وهي الوظيفة المشتركة في كافة الاستخدامات.

وكما تعددت وظائف البازيليكا الرومانية فلم يكن لها كذلك شكل معماري نموذجي؛ فالبازيليكا عرفت في المدن الرومانية منذ القرن الأول الميلادي وعلى امتداد أربعة قرون ظهرت بأنماط مختلفة. فتمثل البازيليكا الرومانية في أبسط أشكالها المعمارية صالة مستطيلة كبيرة بدون بوائك داخلية، وأحيانًا تقسم الصالة بواسطة دعامات، وفي الشكل المعماري المتطور لها نجد أن البازيليكا الرومانية

تمثل صالة مستطيلة كبيرة مقسمة إلى رواق أوسط يدور حوله رواق أو أكثر تفصل بينهما بائكة أو أكثر بحسب عددها، وقد تأتي هذه الأروقة الجانبية في طابقين (مستويين)؛ بحيث يشرف الطابق العلوي (عبارة عن شرفات فسيحة) على الرواق الأوسط؛ وقد تكون الأروقة الجانبية موازية للرواق الأوسط دون أن تحيط به بصورة كاملة. ومدخل البازيليكا يكون بالضلع القصير للمستطيل أو بالضلع الطويل وقد يوجد بكليهما معًا في نفس البناء. وسقف الرواق الأوسط عادة يكون مرتفعًا، وأسقف البازيليكا في الغالب مستوية من الخشب، أو مقببة من الآجر. ومن أجمل البازيليكات الرومانية بازيليكا سيبتيموس سيفيروس بمدينة لبدة العظمى في ليبيا.

ومع بداية القرن الرابع الميلادي وُجد تنوع في تخطيط البازيليكا الرومانية؛ وظلت كتصميم قابل للتعديل والتطوير بحسب الاستخدامات المتجددة، ولم تتحدد في قالب معماري ثابت شأن المعابد الرومانية.

وكان أكثر الأشكال المعمارية شيوعًا للبازيليكا هو مساحة مستطيلة تصميمها على المحور الطولي بدون بوائك وتنتهي بحنية كبيرة مرتفعة تهيمن على الشكل العام للبازيليكا، وبجدران البازيليكا نوافذ ضخمة في صف واحد أو صفين تضيء الداخل. وتبعًا لنمط العمارة الرومانية في هذه الفترة فإن الواجهات الخارجية بسيطة، والداخل مزين بالتكسيات الرخامية، والتذهيب خاصة بتيجان الأعمدة والأسقف. ومن نماذج البازيليكا التي تعود لهذه الفترة بازيليكا القصر بساحة أرمرينيا بصقلية، بازيليكتان بالساحة الرومانية بمدينة سطيف Setif بالجزائر، وبازيليكا الساحة الرومانية في روما (ساحة فسبسيان أو ساحة السلام) والمعروفة الآن بكنيسة "Cosmas and Damian"[٣٦].

الكنيسة البازيليكية والأصول المعمارية

عدم تأثر عمارة الكنائس بعمارة أماكن العبادة الوثنية أمر واضح ومفهوم، ويرجع لسببين رئيسيين: الأول نفسي يتعلق برغبة المسيحيين في عدم إحياء الشكل المعماري المقترن بالعبادات الوثنية، والثاني عملي لعدم قدرة الأشكال المعمارية لهذه الأماكن على الوفاء بمتطلبات العبادة المسيحية وتجمع أعداد كبيرة، واحتياج أماكن متعددة لأغراض مختلفة، فضلاً عن الأنشطة المتنامية للكنيسة في هذه الفترة، وما يتبع ذلك من الحاجة لوجود أماكن كثيرة.

وجدير بالذكر في هذا الصدد التأكيد على خصوصية العمارة المسيحية في مصر «العمارة القبطية» فيرى بعض المتخصصين في العمارة القبطية أن أصل التخطيط البازيليكي هو قاعة الأعمدة الضخمة "Hypostyle" في المعابد المصرية القديمة، ويرجح البعض أن البازيليكا الرومانية ذاتها كان مصدرها العمارة المصرية القديم

وتتنوع النظريات حول الأصل المعماري للتخطيط البازيليكي الذي تأثرت به عمارة الكنائس المسيحية المبكرة، وظل مستخدمًا على مر القرون، وشمل كافة الأماكن جغرافيًّا حتى اكتسب صفة العالمية عن جدارة. فبينما اتفق معظم الباحثين في مجال العمارة المسيحية بصفة عامة على اعتبار البازيليكا (أو الباسيليكا) الرومانية هي المصدر المباشر للتخطيط البازيليكي للكنيسة، تنوعت آراؤهم حول أية واحدة، فالبازيليكا الرومانية استخدمت لأغراض وظيفية متعددة؛ مثل السكنى، دار القضاء، السوق، الحمام.

الرأي بأن صالات الاستقبال في البيوت الرومانية تمثل الأصول المعمارية للبازيليكا المسيحية؛ وذلك ليس فقط لتأثير تشابه الشكل المعماري، ولكن لتأثير عمارة الكنيسة المنزلية التي سادت لفترة طويلة وتعودت عليها التجمعات المسيحية، فمن المقبول أنه عندما تتاح الفرصة لبناء كنائس عامة كبيرة يكون هذا النموذج والذي طبق عمليًّا وتم استخدامه هو مصدر الإيحاء لعمارة الكنائس على مقياس كبير ومع بعض التعديلات اللازمة والتي خبروها بالممارسة.

البازيليكا المسيحية

شكلت البازيليكا في الشرق والغرب على السواء النموذج المعماري للكنائس الأسقفية والأبرشية وكنائس الأديرة وذلك بصفة خاصة في الفترة من القرن الرابع الميلادي حتى القرن السادس الميلادي. ولذا لزامًا علينا أن نعرض بشيء من التفصيل لعمارة البازيليكا وأجزائها ومكوناتها حتى يمكننا الوقوف على أوجه الشبه والاختلاف بين نماذج البازيليكا التي تعود لهذه الفترة من القرن الرابع إلى القرن السادس الميلاديَّين.

يمكن القول إنه رغم تواجد العناصر والوحدات المعمارية المكونة للبازيليكا المسيحية في صور مختلفة في العمارة الرومانية المدنية؛ فإن البازيليكا المسيحية جاءت في شكلها النهائي شكلاً معماريًّا متمايزًا، وغير منسوخ عن نموذج كامل من العمارة القديمة؛ بغرض تلبية احتياجات الديانة الجديدة. وهذا أمر بديهي حيث إن المسيحية كديانة تمثل محددًا جديدًا أو عاملاً جوهريًّا مؤثرًا في إعادة صياغة المفردات المعمارية المتاحة واستيعابها من أجل تصميم كيان معماري جديد نسبيًّا – يتطور مع مرور الوقت – لعمارة دار عبادة للمؤمنين بها.

وجاء هذا الكيان المعماري الجديد بالتأكيد بصورة تطبيقية مختلفة باختلاف أقاليم وولايات الإمبراطورية الرومانية حيث انتشرت المسيحية، فلم يكن ثمة أنموذج موحد يصدر عن مصدر مركزي واحد للتطبيق في كافة الولايات؛ وإنما تأثر تخطيط وعمارة وتفاصيل كل كنيسة بعوامل متعددة لعل أهمها تتعلق بالمنشئ أو الراعي ومدى إمكاناته، والمواد الخام ومدى توافرها، والتراث المعماري المحلي الموروث فضلاً عن الخبرة المعمارية الموروثة والمرتبطة به.

وعن تأثير توافر المواد الخام في البيئة المحلية وكذلك الخبرة المحلية في التعامل مع مواد البناء فهذا أمر وثيق الصلة بالعمارة وبالشكل المعماري بخاصة مع اتساع أراضي الإمبراطورية الرومانية؛ فنجد أن مناطق مثل سوريا وبلاد الشام وشمال إفريقيا تستخدم الأحجار كمادة رئيسية للبناء، بينما بلاد اليونان والبلقان تستخدم مزيجًا من الحجارة والآجر معًا، بينما يمثل الرخام مادة محورية في بناء الكنائس خاصة الأعمدة. والرخام غير متوافر في بلاد الشام وبعض مناطق شمال إفريقيا، في حين توافر في بلاد اليونان وإيطاليا

وهذه العوامل مجتمعة أدت إلى وجود طرز وأنماط مختلفة لعمارة البازيليكا المسيحية؛ ويتم تصنيف البازيليكا في العمارة المسيحية المبكرة لنوعين رئيسيين – ولكل منهما طرز وأنماط مختلفة – بحسب نظام التسقيف، وهما البازيليكا اليونانية، والبازيليكا الشرقية.

أجزاء البازيليكا[٥٠]

١– ساحة مُسَوَّرَة "En. Precinct, Enclosure; Gr. Ο Περίβολος"

حيث تقع البازيليكا داخل ساحة كبيرة مسْوَّرة تمثل حرمًا للبازيليكا، وهي سمة معمارية تميز المجموعات الكنسية في القرنين ٤–٥ م، في الولايات الشرقية للإمبراطورية الرومانية، وأحيانًا تكون بها أروقة، مثل كنيسة القديس ذيمتريوس في فثيوتيذس ثيـﭬس (شكل ٣٨).

٢– فناء "En. Atrium; Gr. To Αίθριο"

أتريوم هو الفناء، ويقال للفناء الداخلي في المنزل الروماني. وهو هنا فناء ذو مسقط مربع أو مستطيل يتقدم البازيليكا من الجهة الغربية (شكل ٣٩)، وقد يكون محاطًا برواق مغطى من جميع الجهات (القرن الرابع الميلادي)، وفي القرن الخامس الميلادي أصبحت فقط الجهة؛ حيث مدخل البازيليكا هي التي تحوي رواقًا أو سقيفة مغطاة لتمثل السقيفة الخارجية للبازيليكا "Narthex"، والسقف يكون مائلاً باتجاه الفناء لحماية المدخل من الشمس والمطر. والفناء بمثابة مكان للتجمع خارج الكنيسة الرئيسية للموعوظين وقت قداس المؤمنين، أو لمن ليس لهم الحق في دخول الكنيسة.

وفي بعض الحالات كان يوجد بالفناء دخلات نصف دائرية عرفت باسم إكسيدرا[٥١] "εξέδραι"، ومن المحتمل أنها كانت تستخدم في حفظ الملابس الكهنوتية الخاصة بالأسقف، أو كمكان حيث يوضع كرسي للأسقف الذي سيرأس أي طقوس أو مراسم قد تتم في الفناء (للموعوظين الذين لم يعمّدوا). وجدير بالذكر أن الإكسيذرا قد انتقلت لاحقًا في أطراف زوايا السقيفة الخارجية للبازيليكا. وقد حفظ نموذج نادر لمثل هذه الحنايا بوسط الجانب الغربي لفناء البازيليكا A فيليبوس باليونا

كان يتوسط الفناء فسقية أو حوض ماء، حيث يغسل المؤمنون أيديهم وأرجلهم قبل دخولهم الكنيسة.

٣- كتلة المدخل المعمّدة "En. Propylaeum, Entrance; Gr. Το Πρόπυλο"

يتقدم عادة مدخل الكنيسة من الفناء كتلة مدخل ترتكز على أعمدة. وفي بعض الحالات نجد في واجهة الفناء أبراجًا دفاعية؛ مثل كنيستا بازيليكا A في فثيوتيذس ثيـڤس وبازيليكا إبيذافروس

٤- رواق المدخل الغربي للكنيسة (سقيفة المدخل)

"En. Narthex, Portico; Gr. Ο Νάρθηκας"

رواق المدخل هو الرواق أو الدهليز المستعرض الذي يتقدم صحن البازيليكا الأوسط والبلاطات الجانبية المحيطة به من جهة المدخل (الجهة الغربية)، ويطلق عليه في هذه الحالة "En. Inner Narthex; Gr.Εσονάρθηκας"؛ أو يتقدم واجهة الكنيسة الخارجية من الناحية الغربية فيمثل رواقًا خارجيًا أو سقيفة خارجية ويعرف باسم "En. Outer Narthex; Gr. Εξονάρθηκας"، وقد يكون رواق المدخل هو نفسه الرواق الذي يحيط بالفناء الخارجي ويتقدم البازيليكا من الجهة الغربية.

ويعكس تقسيم رواق المدخل غالبًا تقسيم الكنيسة من الداخل من حيث عدد الأروقة، ففي البازيليكا ذات الثلاثة أروقة يُقسم رواق المدخل إلى ثلاث مساحات بواسطة عقود ترتكز على أعمدة أو أكتاف بنائية مدمجة بالجدران، ويتصل رواق المدخل بصحن الكنيسة بمدخل ثلاثي الفتحات على نمطين؛ إما ثلاثة مداخل منفصلة، أو بائكة ثلاثية الفتحات أو العقود، حيث ترتكز على عمودين في الوسط وعلى أكتاف في الجدارين الجانبيين
ويتصل رواق المدخل بالبلاطات الجانبية بفتحة مدخل واحدة بكل بلاطة.

وفي حالة وجود شرفة (طابق علوي) أعلى البلاطات الجانبية بالبازيليكا، ترتكز الشرفة في الجزء الغربي أعلى رواق المدخل على عقود رواق المدخل.

ويأتي "Narthex" أيضًا بمعنى مزار عند المدخل الرئيسي للكنيسة في العصور الوسطى.

٥- غرفة الهبات بالكنيسة "En. Diaconicon, Sacristy; Gr. To Διακονικό"(٥٢)

غرفة ملحقة بالكنيسة في الفترة المبكرة استخدمت كغرفة للهبات (أي استقبال تبرعات المؤمنين). وكان موضعها في العمارة المسيحية المبكرة على يمين مدخل الكنيسة برواق المدخل (الجهة الجنوبية من رواق المدخل). وكان عبارة عن حجرة مستطيلة بها حنية.

وفي فترة متأخرة استخدمت هذه الغرفة كأرشيف، وكحجرة لمجلس الكنيسة، ولحفظ ملابس الكهنة، وكمكتبة لحفظ الأدوات المستعملة في الصلوات وهدايا المصلين.

في فترة لاحقة (في القرن السادس الميلادي) نقلت هذه الغرفة إلى الطرف الشرقي من البلاطة الجنوبية، وجاءت ضمن تكوين معماري متماثل يحيط بالهيكل عبارة عن حجرتين متماثلتين عرفتا بغرفتي الباستوفوريا "Pastophoria"؛ الجنوبية التي نحن بصددها تمثل الــ"Diaconicon"، والشمالية تسمى بروثيسيس "En. Prothesis; Gr. Πρόθεση" وتستعمل لتحضير القربان لقداس الشكر. وجدير بالذكر أن هذه الغرفة لا توجد في كنائس الغرب؛ حيث يقدم المؤمنون هباتهم وتبرعاتهم في الهيكل في بداية قدّاس المؤمنين.

غرفة الأدوات المقدسة (في المعبد الإغريقي) تعرف أيضًا بالـ "Diaconicon".

٦- غرفتا حفظ أدوات التحضير لطقوس صلاة الشكر(٥٣)

"En. Pastophoria; Gr. Τα, Παστοφόρια"

مصطلح Παστοφόρια مكون من جزأين: الأول "Παστάς" بمعنى «سرير العُرس» إشارة إلى رمزية اتحاد المؤمن في طقس صلاة الشكر مع المسيح، والثاني "φόριο" بمعنى حصن، وتعني هنا مكان حفظ؛ ومن ثم فيعني المصطلح كاملاً «مكان حفظ أدوات».

وهما كما سبق الإشارة في تعريف غرفة الهبات تكوين معماري من غرفتين (غرفة الهبات Diaconicon، وغرفة التحضير للقربان Prothesis يكتنف الحنية من جهتيها الجنوبية والشمالية على الترتيب. حيث توجد الحنية الشرقية (الهيكل) داخل الشكل المستطيل للبازيليكا، مكونة غرفتين مستطيلتين محصورتين بين الحنية والمستطيل الخارجي للبازيليكا، يحيطان بالحنية من الجهتين الجنوبية والشمالية وانتشر هذا التخطيط في بازيليكات سوريا، وشمال إفريقيا، وداخل آسيا الصغرى، وجزر البحر المتوسط: قبرص، وكريت، والاثنتي عشرة جزيرة، وبعض الأماكن في البلقان.

٧- الشرفات(٥٤) مصلى النساء

"En. Gallery or Tribune; Gr. Tα Υπερώα ή Υυναικωνίτης"

الشرفة هي الطابق العلوي الذي يعلو البلاطات الجانبية في الكنيسة البازيليكية، ويتماثل في أبعاده مع البلاطات الجانبية التي يعلوها. وتنتشر بصورة رئيسية في اليونان، وفي سوريا وشمال إفريقيا. والنساء يحضرن الطقوس عادة ويتابعنها من الشرفة؛ ومن ثم فيعرَّف على أنه مصلى النساء.

والفصل بين النساء والرجال متبع منذ نشأة المسيحية متأثرًا بالطقوس داخل المجْمع اليهودي.

٨- الحنية(٥٥)الهيكل

"En. Apse, Sanctuary; Gr. H Αψίδα ή η κόχη του ιερού βήματος"

تنتهي البازيليكا من جانبها الشرقي بحنية عادة نصف دائرية أو مستطيلة المسقط. وفي العمارة المسيحية المبكرة كان يوجد حنية واحدة؛ حيث يوجد هيكل واحد لأداء الطقوس الكنسية. ومن ثم فهو أكثر الأماكن قدسية بالكنيسة؛ ولا يجوز لغير ذوي الرتب الكهنوتية دخول الهيكل. ويسمى الهيكل قدس الأقداس والقبة المحتجبة وبيت الله. وفي مصر في الفترة المبكرة حتى نهاية القرن الرابع الميلادي كثير من القاعات أو الغرف حوّلت إلى كنائس أو مصلى كنسي بإضافة حنية جهة الشرق.

في الكنائس الشرقية كان يكتنف الحنية غرفتا الباستوفوريا "Pastophoria" من الجهتين الجنوبية والشمالية. وفي مصر في فترة متأخرة تم تحويل الغرفتين إلى حنيتين بهيكلين لتصبح الجهة الشرقية للكنيسة القبطية متفردة في احتوائها على ثلاثة هياكل تستخدم جميعها للطقوس الكنسية. ورغم اشتراك إيطاليا مع مصر في أن حنية الكنيسة بها تأخذ شكل حنية ثلاثية، فإنه في البازيليكا الإيطالية تكون الحنية الوسطى فقط هي التي تمثل الهيكل، ويكون فيها المذبح وتقام فيها الطقوس الكنسية.

في كنائس شمال إفريقيا قد تضاف حنية للبازيليكا في الجهة الغربية، حيث يكون عادة موقع قبر الشهيد

العناصر المعمارية الطقسية

ارتبطت الحنية حيث الهيكل ببعض العناصر المعمارية والفنية التي تحمل الصفة الطقسية، وسنعرض لها باختصار للتعرف على أماكن وجودها وصفة أشكالها ووظائفها، وتتمثل في:

١- الحجاب[٥٦]

" En. Cancelli or Screen; Gr. Το Φράγμα του Πρεσβυτερίου"

يعرف الحجاب في اللاتينية بالمصطلحات التالية "Podium, Pectoralia, Meniana" وفي اليونانية "Κιγκλίδες،Δρύφακτα, Κάγγελοι،κάγκλλοι،κάγκελλα"، وأطلق على باب هذا الحجاب الموصل للهيكل البوابة المقدسة "άγια θύρια،καγκελοθύρια".

والحجاب أو الحاجز كما هو مستمد من اسمه لحجب وفصل الهيكل وما يحويه من عناصر طقسية عن صحن الكنيسة؛ أي أن وظيفة الحجاب في الكنيسة هي حجب الهيكل والمذبح وأعمال الطقوس السرية للقداس عن رواد الكنيسة من عموم المسيحيين الذين يتواجدون بصحن الكنيسة، حيث إن دخول الهيكل ورؤية الطقوس السرية للقداس هي أمور قاصرة على رجال الدين وذوي الرتب الكهنوتية.

في كنائس القرن الرابع الميلادي كان الحجاب يأخذ شكل درابزين منخفض، ولذا أطلق عليه "Κιγκλίδες" ويكون في مركز هذا الدرابزين المنخفض باب أو مدخل (نهاية القرن الرابع الميلادي) يمثل المدخل الوحيد للهيكل وأطلق عليه «البوابة المقدسة». ارتفاع الدرابزين «الحجاب» هنا يمنع وينظم الحركة، لكنه لم يكن مرتفعًا بالقدر الذي يحجب الرؤية؛ لذا استخدمت ستائر أعلى هذا الدرابزين لعزل رؤية الهيكل وقت الطقوس السرية للقداس. ثم في فترة لاحقة - غالبًا القرن الخامس الميلادي - أصبح الحجاب يأخذ شكلاً مربعًا أو مستطيلاً على شكل حرف Π، ومنذ النصف الثاني من القرن السادس الميلادي أصبح الحجاب بعرض الكنيسة كلها حاجبًا الهيكل (أو الهياكل) وممتدًا في البلاطات الجانبية[٥٧].

ومع بدايات القرن الخامس الميلادي أصبح الهيكل والحجاب الذي يحجبه عن صحن الكنيسة مرتفعًا عن مستوى أرضية صحن الكنيسة والبلاطات الجانبية؛ حيث يقام على منصة أو درجة مرتفعة؛ ومنها جاء مصطلح البيما "Βήμα, Bema" ليعبر عن الجزء المرتفع من الكنيسة والمفصول عنها عبر حجاب، كما كان قاصرًا على رجال الدين.

الحجاب بداية كان يصنع من الخشب وأحيانًا من الحديد أو المعدن، ثم انتشر عمل الحجاب من الحجر والرخام وفي مناطق أخرى بالآجر، وفضلت الكنائس المصرية استخدام الحجاب الخشبي[٥٨] - مع وجود أحجبة من الآجر والحجر - فجاءت أحجبة الكنائس القبطية تحفًا فنية من الخشب المفرغ دقيق الصنعة وغالبًا مُطعم بالعاج والأبنوس، وغني بالزخارف النباتية والرموز المسيحية. وللأسف فإن الأحجبة الخشبية التي حفظت يعود أقدمها للقرن العاشر الميلادي، وإن كانت تمثل استمرارًا لتقليد منذ القرن الرابع الميلادي.

والأحجبة الحجرية والرخامية ي الفترة المبكرة القرنين الرابع والخامس الميلاديَّين كانت تتألف من دعامات صغيرة تحصر بينها حشوات رخامية منحوتة بأشكال زخرفية. كانت واجهات الدعامات تُزَيَّن بزخارف هندسية غالبًا، وتتوج الدعامات بشكل كرّي «رمانة». وزخرفت حشوات الأحجبة بموضوعات زخرفية منفذة بالحفر الغائر، وغلب

على الموضوعات الزخارف الهندسية البسيطة في القرن الرابع الميلادي والنصف الأول من القرن الخامس الميلادي، ومنذ النصف الثاني من القرن الخامس الميلادي أصبحت الموضوعات الزخرفية للحشوات مركبة وأكثر إتقاناً، تداخلت مع الزخارف الهندسية عناصر نباتية وحيوانية[٥٩].

وهناك فرق وظيفي ومعماري بين الحجاب "Cancelli or Screen" وبين حامل الأيقونات "Iconostasis"؛ وهو واضح في اللغات الأجنبية تمامًا، ولكن أحيانًا يحدث لبس في الكتابات العربية نتيجة موقعهما الواحد في الكنيسة ما أدى إلى دمجهما في كيان معماري واحد يحقق الغرضين الوظيفيَّيْن معًا.

فحامل الأيقونات "Iconostasis"[٦٠] لم يكن الغرض منه حجب الحرم أو الهيكل عن الصحن، بل كان الغرض الرئيسي منه حمل مجموعة من الأيقونات التي يجب أن يراها المصلون وهم بالكنيسة، ولذا كان أفضل مكان هو مكان توجه المسيحيين المصلين أي تجاه الشرق ولذا اختيرت واجهة الهيكل؛ حيث الحجاب – الذي استمر استخدامه عنصرًا ثابتًا في الكنائس الشرقية دون الغربية – كمكان مثالي لوضع الأيقونات. كما أن التطور التاريخي لكلٍّ من العنصرين متمايز؛ ولذا عند الحديث عن العمارة المسيحية المبكرة لا حاجة لنا للإسهاب في الحديث عن حامل الأيقونات والذي ظهر غالبًا بعد القرن الثامن الميلادي.

٢- صدْر صحن الكنيسة "En. Soleas or Screen; Gr. Σολέα"

يمكن التعبير عن مصطلح Solea في العربية بصدر صحن الكنيسة؛ وهو للدلالة على مكان بالكنيسة وليس أثاث كنسي. نجد في المصادر اليونانية[٦١] صيغًا عديدة للدلالة على هذا العنصر منها "σολέα،σολέας ، σολεία".

ومصطلح Solea مرتبط أكثر بالكنيسة الشرقية، ودلالته المعمارية مكان ضيق أو متسع – بحسب مساحة الهيكل والكنيسة – مستطيل مرتفع يتقدم مدخل حجاب الهيكل. وقد يحاط هذا المكان بدرابزين ويستخدم لوقوف الشمامسة، أو المرتلين، أو أصحاب الرتب والمقامات الرفيعة أثناء إقامة الطقوس الدينية. وفي هذا المكان يوجد كرسي الإمبراطور والأسقف. وأقرب إشارة للمعنى[٦٢] تتصل بمصطلح "Solium" وتعني العرش أو الكرسي العالي، وهو الأقرب للدلالة الوظيفية لهذا العنصر المعماري. وفي الكنائس الغربية يُستخدم كمكان للمرتلين "Schola cantorum".

٣- درج الكهنوت[٦٣] "En. Synthronum; Gr. To Σύνθρονο"

درج رجال الدين في حنية الهيكل في الكنيسة – وهو يمثل نصف دائرة تدور حول المذبح تجاه الشرق – ويجلس عليه رجال الكهنوت أثناء تأدية قداس الشكر على المذبح، ويكون كرسي الأسقف أو الكرسي الرئيسي في مركز الدرج خلف المذبح من جهة الشرق، حيث يمثل العنصر المعماري الأخير في الحنية جهة الشرق. وعادة يأخذ شكل درجات تاركًا بينه وبين المذبح ممرًّا لتسهيل حركة الشمامسة ورجال الكهنوت أثناء القداس (شكل ٥٣).

وفي بعض الحالات نجد أن الدرج يشغل الحنية بالجهة الشرقية للمذبح، وهناك مصطبتان تحيطان بالمذبح من الجهتين الجنوبية والشمالية، وتتركان مع درج الحنية ممرًّا يفصلهما عن المذبح لسهولة الحركة، يأخذ شكلاً نصف دائري أو حرف U تكون فتحته جهة الغرب (شكل ٥٢،٥٤). وفي هذه الحالات يقتصر استخدام الدرج داخل الحنية ككرسي للأسقف، ويجلس الشمامسة على المصطبتين حول المذبح أثناء القداس.

وكرسي الأسقف كما سبق القول يكون بمركز الدرج بالحنية أقصى الشرق من المذبح، وقد

يكون ثابتًا أو متحركًا، ويصنع من المرمر أو المعدن، أو الخشب، وأيضًا من المواد النفيسة. ويمثل كرسي الأسقف ماكسيميانوس برافينا (منتصف القرن السادس الميلادي) نموذجًا رائعًا لكرسي الأسقف وتحفة فنية؛ فهو من الخشب ذي حشوات زخرفية محفورة ومطعمة بالعاج، وتشمل الزخارف رسوم قديسين داخل أشكال محاريب، وزخارف نباتية، وحيوانية، وكتابات على درجة عالية من القيمة الجمالية والفنية والتاريخية، وهو محفوظ حاليًّا بالمتحف الوطني برافينا

ونجد في شمال سوريا في بازيليكا A بالرصافة (شكل رقم ٥٦) نموذجًا لتخطيط غير تقليدي؛ حيث نجد درج رجال الدين خارج الحنية، فنجده في صحن الكنيسة ضمن تكوين معماري يمثل في مجمله نمطًا غير تقليدي. وهو عبارة عن منصة مستطيلة تنتهي بحنية نصف دائرية، حيث يوجد الدرج. وفي مركز المنصة مربعة المسقط توجد ظلّة ترتكز على ٤ أعمدة ومغطاة بشكل هرمي. وهذه الظلة استخدمت كمنجلية أو أمبون حيث يقف فيها الكاهن أو الشماس ليلقي الموعظة أو يقرأ الكتاب المقدس، وقد تكون للاستخدام أثناء الاحتفالات الدينية من قبل المرتلين؛ حيث يقف داخلها ويحيط بالمنصة درابزين رخامي منخفض يتكون من أعمدة تربط بينها حشوات رخامية.

٤- المذبح "En. Altar; Gr. Η Αγία Τράπεζα" [٦٤]

المذبح من العناصر الثابتة المعمارية في الكنيسة؛ وهو عبارة عن طاولة أو سطح مرتفع تقام عليه طقوس القداس "Το μυστήριο της Θείας Ευχαριστίας". ويعرف المذبح في اليونانية بأسماء عديدة أشهرها: "Τράπεζα" أي الطاولة «ترابيزة المأخوذة عن الكلمة اليونانية ذاتها»؛ "Τράπεζα Κυρίου" طاولة الرب؛ "Αγία Τράπεζα" الطاولة المقدسة؛ "Μυστική Τράπεζα"؛ "Θυσιαστήριον" مكان الأضحية أو الذبيحة، والأقباط يطلقون عليه Ιλαστήριον، واستخدموا أيضًا الكلمة المصرية القديمة Pimanerschoouschi، وهناك كلمة "Βωμός" وتستخدم في الكتابات المسيحية

للدلالة على مذبح وثني، ولفظ Ara كمرادف أو ترجمة لـ"Βωμός"، ومصطلح Mensa Domini or Mensa Dominica يرد في كتابات الآباء الغربيين، والأكثر شيوعًا في كتاباتهم مصطلح Altare، وعن الأخيرة اشتقت الكلمات المرادفة للمذبح في غالبية اللغات الأوروبية والسلافية.

ويتكون المذبح ككيان معماري من الدرج أو المنصة، حيث يثبت أعلاها متوسطًا هيكل الكنيسة، المذبح نفسه سواء كان طاولة مشتملة على أرجل أو أعمدة الطاولة وسطحها المستطيل الذي يطلق عليه "Mensa" (شكل ٥٧)، أو على شكل الصندوق المغلق أو تركيبة – المدفن؛ حيث يتكون من حشوات جانبية وسطح المذبح (شكل ٥٨). وفي الفترة المبكرة أحيانًا كان يعلو المذبح مظلة "Ciborium or Canopy" ترتكز على أربعة أعمدة (شكل ٥٩).

والمذبح في الفترة المسيحية المبكرة حتى النصف الثاني من القرن الرابع الميلادي تقريبًا كان عبارة عن طاولة خشبية ومتحركة. ثم أصبح المذبح عنصرًا معماريًّا ثابتًا عبارة عن بناء مربع أو مستطيل الشكل يتوسط هيكل الكنيسة يكون بناؤه من اللبِن أو الآجر أو الحجر؛ ومنذ القرن الرابع الميلادي أصبحت تُستخدم في صناعة المذبح المعادن الثمينة، والعاج، والذهب والفضة. فقد أهدى الإمبراطور قنسطنطين لبازيليكا كنيسة القيامة بالقدس مذبحًا بالكامل من الذهب والفضة، والمذبح في بازيليكا لاترانو بروما من الفضة. وأهدت الإمبراطورة بولخريا كنيسة الحكمة المقدسة بالقنسطنطينية مذبحًا من الذهب والأحجار الكريمة.

في الكنائس الشرقية[٦٥] يتم بناء المذبح عادة وسط الهيكل ليتمكن كلٌّ من الكاهن والشماس من التحرك بسهولة حوله. وفي كنائس البازيليكا ذي المجاز القاطع وذات التخطيط الصليبي يوضع المذبح في المربع المركزي؛ حيث مركز تقاطع أذرع الصليب.

وغالبًا يوجد مذبح واحد بكل كنيسة تقام عليه الطقوس؛ وتتميز الكنائس الشرقية عمومًا بتعدد المذابح. واختصت الكنيسة القبطية[٦٦] بتعدد المذابح التي يتم عليها الطقوس، فنجد في الكنيسة المصرية – في فترة متقدمة في القرن العاشر الميلادي على أقل تقدير – ثلاثة هياكل؛ بحيث يتوسط كل هيكل مذبحًا.

وأحيانًا كان يعلو المذبح مظلة "Gr. Κιβώριον; En. Ciborium; It. Baldachino" ترتكز على أربعة أعمدة؛ وقد تكون الأعمدة حتى الأرض، أو تكون قصيرة على المذبح نفسه فيطلق على هذا النوع من المظلة Peristeruim. ومثل هذا الشكل لم يرد قبل القرن الخامس الميلادي؛ فنراه في فسيفساء كنيسة القديس جورج في ثيسالونيكي (القرن الخامس الميلادي)، وتمثل مظلة مذبح كنيسة القديس أبوليناري في رافينا أقدم نموذج مؤرخ باقٍ؛ حيث عليه نقش يذكر تاريخ بين ٨٠٦–٨١٠ م. وجدير بالذكر أن كنائس مصر القديمة يوجد بها مظلة خشبية ترتكز على أربعة أعمدة من الرخام أو الخشب.

وهناك نمطان رئيسيان من المذابح:

النمط الأول: ينتشر في الكنائس البازيليكية في مصر واليونان وبلاد العراق والشام، والمذبح هنا عبارة عن بناء مصمت مكعب أو مستطيل الشكل؛ يتألف من لوح رخامي مبني على قاعدة حجرية أو مرتكز على حشوات رخامية في شكل تركيبة رخامية "Tomb-form". وفي هذا النوع من المذبح أحيانًا يتم عمل تجويف داخلي تكون فتحته غالبًا في الحشوة الرخامية جهة الشرق وتوضع فيه الآثار المقدسة للقديسين.

النمط الثاني: يمثل المذبح الحرّ وهو الأصل في شكل المذابح على شكل طاولة؛ وهو عبارة عن لوح رخامي يمثل سطح المذبح "Mensa" يستند على أعمدة رخامية (أرجل)، تتعدد لتبدأ من عمود واحد في المنتصف (مثل مذبح كنيسة آيريول "Auriol" بفرنسا فى القرنين الخامس والسادس الميلاديَّين، شكل ٥٧)، والأكثر انتشارًا أربعة أعمدة في الأركان، وتبعًا لمساحة المذبح تزداد الأعمدة فهناك خمسة أعمدة (واحد في المنتصف وأربعة في الأركان، ومن أمثلة هذا النوع مذبح بمتحف مارسيليا مؤرخ بالقرن الخامس الميلادي)، وتسعة أعمدة (مثل مذبح كنيسة بازيليكا B بنيكوبوليس، شكل ٦٠). وهذا النوع من المذابح انتشر في بداية القرن الرابع الميلادي في الشرق والغرب على السواء، ثم أصبح سائدًا في الشرق ونادرًا ما يوجد في الكنائس الغربية.

وارتبط المذبح في الكنائس الغربية بشكل جديد من التكريس للشهداء والقديسين، حيث صار تقليدًا في روما (والمدرسة المعمارية التابعة لها) منذ القرن الرابع الميلادي بإنشاء قبو صغير أي سرداب وأطلق عليه "Confessio" أسفل الدرج تحت موقع المذبح. وهذا القبو كان في الأصل يمثل فقط مدفنًا أو مرقدًا يسع جثمانًا واحدًا فقط، ثم تطور واتسع ليمثل قبوًا يتصل بالكنيسة عبر نافذة أو مصبعات معدنية أسفل المذبح، ليتيح رؤية التابوت؛ حيث يوجد جثمان القديس (شكل ٦١).

وتقليد وضع المذبح فوق رفات أحد الشهداء أو القديسين ربما يكون نابعًا من الربط بين تضحية هؤلاء الشهداء الذين أعلنوا إيمانهم وعانوا في سبيل ذلك وبين رمزية التضحية في قداس الشكر. وتأصل هذا التقليد في الكنائس الغربية حتى صار قاعدة؛ فكان كل مذبح يبنى يجب أن يكون تحته رفات أو أثر مقدس من الشهداء والقديسين، ويجب أن يكون من بينهم القديس الذي تكرس على اسمه الكنيسة.

والمذبح يغطى بثلاثة أغطية: الأول من الكتان أو القطن ويصل إلى الأرضية، والثاني من الحرير الأحمر وعليه صلبان مطرزة في كل جانب ويصل إلى الأرضية، والثالث من الكتان الأبيض وهو يغطي سطح المذبح فقط[٦٧].

ويرتبط بالمذبح عنصر آخر يطلق عيه الثالاسا[٦٨] "En. Piscine; Gr. Η Θάλασσα ή, Χωνευτήριο"، وهو يعني الحوض الصغير (وقد يكون تجويفًا صغيرًا ضحلاً) إلى يمين أو جهة الشرق أو أسفل المذبح تتجمع فيه السوائل مثل الماء. وهذا الماء يعد ماءً مقدسًا؛ ويغسل به الكائن المذبح والأواني الطقسية كما يغسل فيه الكاهن يديه قبل أن يشرع في طقس الإفخاريستيا «الشكر». وأطلق على هذه الأحواض الصغيرة "Θάλασσες"، والمعنى الحرفي لـΘάλασσα هو البحر، وهو هنا يعني النبع. وفي الفترة المتأخرة عُرف باسم Χωνευτήριο ومعناه قدر وبوتقة تتجمع فيه المياه المقدسة.

٥- مقصورة الاعتراف[٦٩] «السرداب»

"En. Confessio; Gr. Η Κρύπτη ή κατάβαση"

في الأصل تعني مكان دفن القديس أو الشهيد الذي شهد شهادة حق للمسيح عليه السلام. ومن هنا جاء تقليد (في الكنائس الغربية بصفة خاصة) أن يكون موضع المذبح أعلى هذا المدفن أو القبر. وبتطور الأمر أصبحت تبنى البازيليكا أو المصلى على هذه البقعة المقدسة. ومن هنا عرف هذا العنصر المعماري (وأيضًا المذبح أعلاه) في هذا النوع من الكنائس باسم "κατάβαση" أي المنحدر. وهذا النوع من الكنائس مرتبط بالكنيسة الغربية، ومعظم نماذجه في روما، وارتبط بتقديس آثار القديسين والشهداء.

ومن الكلمات المرادفة الدالة على هذا العنصر المعماري الطقسي Memoriae Martyrum and Martyria concilia martyrum وكلها تفيد معنى المشهد (قبر الشهيد أو مدفن الشهيد) أو المشهد التذكاري.

ومعماريًّا هو عبارة عن قبو أو مدفن أسفل حنية الكنيسة، حيث يوضع تابوت جثمان أو رفات أو الآثار المقدسة لأحد القديسين أو الشهداء. ويكون التابوت أسفل المذبح، ويتوصل إليه عبر سلم هابط من عدة درجات من النهاية الشرقية لصحن الكنيسة (شكل ٦١).

٦- موضع الآثار المقدسة «التكريس»[٧٠]

"En. Consecration; Gr. Η Κατάθεση ή εγκαίνιο"

في الشرق نجد أن تكريس الكنائس لا يتم بعمل سرداب أو مقصورة متصلة بسطح الكنيسة مثل Confessio في الكنائس الغربية؛ ويستعاض عن ذلك بوضع الآثار المقدسة للشهيد أو القديس الذي تكرس الكنيسة على اسمه داخل صندوق أو آنية، وتوضع داخل حفرة أو خندق صغير أسفل موقع المذبح مباشرة (شكل ٦٢). وتأخذ هذه الحفرة شكلاً مستطيلاً أو شكلاً صليبيًّا؛ وتحاط ببلاطات رخامية لحمايتها.

٧- الأمـﭭون[٧١] أو الأمبون «المنبر الكنسي»

(En. Ambo or Pulpit; Gr. Ο Άμβωνας)

مصطلح "Άμβωνας" اسم يوناني من الفعل "αναβαίνω" بمعنى يصعد، حيث يصعد الكاهن أو القس لمكان عالٍ داخل الكنيسة لإلقاء الموعظة، وقيل مصدره لفظ «الإنبل»[٧٢] من اللغة الأمهرية. وهذا العنصر المعماري كان في الفترة المبكرة ومع بدايات القرن الرابع الميلادي بسيطًا؛ فقد كان عبارة عن سلم غالبًا من ثلاث درجات ينتهي بجلسة أو منصة؛ حيث يقف عليها الواعظ ليلقي الموعظة[٧٣] (أو يقرأ الشماس الكتاب المقدس) ليكون صوته مسموعًا ويراه جميع الحاضرين وذلك حين أصبحت التجمعات المسيحية كبيرة العدد وأصبحت الصلاة والعبادة والتجمع داخل الكنائس العامة. وفي مصر تمثل نماذج كيليكيا وعين الجديدة

نماذج مبكرة لهذا العنصر المعماري

ومع تطور شكل وتخطيط الأمبون أصبح يمثل منصة أو جلسة عالية يصعد إليها الواعظ عن طريق سلم واحد أو سلم بطرفين. وقد وجد الأمبون ذو الدرج المستقيم الواحد الذي ينتهي بالمنصة أو جلسة الواعظ في القرن الرابع الميلادي واستمر في القرن الخامس الميلادي، والنماذج التي حفظت لهذا النوع قليلة. ويكون الدرج جانبيًّا بحيث يقود للجلسة من الجانب أو من الخلف (الجهة الشرقية، حيث يتوجه الواعظ تجاه الغرب حيث جمع الحاضرين)، ومن ثم يكون الواعظ في مواجهة جماعة المؤمنين مباشرة، وفي فترات متأخرة (البيزنطي المتأخر، بتأثير من العمارة الإسلامية، أصبح درج المنبر داخل سمك الجدران؛ بحيث تكون المنصة فقط هي الظاهرة) وذلك له تأثير أفضل في التواصل بين الواعظ وجموع الحاضرين.

ثم تطور الأمبون فصار بسلم بطرفين؛

النمط الأول: يأخذ طرفا السلم مسقطًا به استدارة على شكل قوس، وأصبح الأمبون مع هذا التطور أكثر مهابة وتأثيرًا. وإضافة سلم بطرفين لم يغيّر من شكل النمط حيث الوصول والدخول لجلسة الواعظ ظل من جهة الشرق. وحفظ ثلاثة أمبونس (جمع أمبون) اثنان مؤرخان بالقرن الخامس الميلادي، والثالث أوائل القرن السادس الميلادي وهم على التريب: أمبون بازيليكا فثيوتيذس ثيفس، بازيلكيا القديس جورج بثيسالونيكى[٧٤] والمحفوظ حاليًّا بالمتحف الأثري بأسطنبول (شكل ٦٣)، وبازيليكا فيليبوس[٧٥]. وكان يعلو الجلسة كما في المثالين الأولين مظلة ترتكز على أربعة أعمدة تستند على زوايا الجلسة المربعة أو المستطيلة، ومغطاة بقمة مخروطية (شكل ٦٤).

النمط الثاني: (لهذا النوع أي الأمبون ذي سلم بطرفين)، يختلف في أن طرفي السلم فيه ذوا مسقط مستقيم. وقد ظهر هذا النمط في القرن الخامس الميلادي، وانتشر بشكل كبير في القرن السادس الميلادي، وحفظت منه أمثلة عديدة (شكل ٦٥)، وفي بعض الأحيان نجد جلسة الواعظ فيه يغطيها مظلة.

موقع الأمبون غالبًا في الصحن الأوسط للكنيسة مما يلي حجاب الهيكل، وقد يوضع في منتصف صحن الكنيسة أو في أحد طرفيه؛ ويراعى في موقعه أن يحقق أفضل مجال رؤية وتأثير سمعي لجموع الحاضرين.

وتصنع المنابر عادة من نفس مادة البناء الرئيسية المستخدمة في الكنيسة؛ فنجدها من الطوب اللبن (عين الجديدة بواحة الداخلة بمصر)، والحجر، والرخام. وقد شاعت الحجرية منها وذوات الحشوات الرخامية. وقد يكون قطعة واحدة مبنية أو مكونًا من أجزاء وحشوات. ونادرًا ما كان يستخدم مواد نفيسة، كما في حالة أمبون جستنيان بكنيسة آيا صوفيا بالقنسطنطينية.